



يَوْمِيَّانَا فِي الْإِرْيَافِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

(تابع)

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها عظم الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضي حتى وجدت في وجهي أحد المساكر يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إلى للتوقيع . فوضعت إمضائي دون وعي على هذه الأوراق التي ليس لها آخر . وإمضائي الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمي . فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطأ أو خطيئ أقيهما حينما اتفق . وما إن فرغت من ذلك وقد تصبب مني المرق حتى سمعت من بضرب الأسفلت بحذاءه ويرفع كفه بالسلام :

— التحقيق منتظر فوق في قضية ضرب النار ! ولكن للقوة الأدمية حدوداً . ولم أتباع بلقمة ولم أطرح جسمي على فراش منذ . منذ أمس الأول . فما تمالكت أن قلت :

— ضرب نار في عينك ؟ لو كنا عسكرياً في الخنادق ، أو في حرب الدردنيل لأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ما ذنب الحفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت في طريقي ، وصعدت إلى مكنتي

في الطابق الثاني فألفيت بيباه الفتاة « ريم » منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛ واست أدري ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشني قلباً صراي الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت حجرتي فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين في نشاط المستيقظ من نوم صريح ، فعلت أنهم آتون الساعة من منازلهم ، وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت في هذه القضية ، فذلك خير من لعب « الطاولة » في النادي أو مص القصب أمام الأجزاء الخانة . أما أنا فأنسان لا يصلح الآن لشيء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات . فأعلنت الحاضرين برعيتي في تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يظن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريبها . وليس من الرأي أن تمود لتأتي مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يمينهم أمر القضية من الأهالي والشهود فيلقنونها ما لا يستقيم مع الصدق والحق ،

وهي لا نعرف أحداً في هذا المركز ولا أهل لها به .
هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام في بيتي
للصبح . فالتفتنا إليه جميعاً في شبه دعر ؛ ثم
تمالكنا أنفسنا ، ولست أدري كيف دب
فيما نحن الحاضرين نفس الشعور في نفس الوقت .
حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خافي وداف إلى
الحجرة ، ظهر في عينيه القلق . وكان الموقف دقيقاً .
إن أي اعتراض منا معناه الريبة في سلوك حضرة
المأمور ؛ ومن جهة أخرى إذا سلمناه هذا الحل
الوديع فإن الله وحده هو المنجي . فهذا المأمور قد
شاعت له شائمة أنه استمتع ذات يوم فلاحه
دخات عليه بشكوى ، وأراد أن يختل بها ، فأمر
عسكره وخفرائه أن يدخلوا سجن المركز ويحلقوا
ذقون المساجين . فلما دخلوا أغلق عليهم الباب من
الخارج وحبسهم ساعة انفرد خلالها بالمرأة .
تذكرت ذلك وقلت في نفسي : إذا ساءت الأمور
وتخرجت فأى عبء يوقر ضميري أنا وكيل النيابة
الذي دفع بيده هذه التفاحة اليانعة إلى هذه
الأنياب التي يسيل منها اللعاب ؟ ! العجيب أن
الحاضرين كلهم قد أطرقوا ووجوا كمن قد أبقن
وقدر أنها أكلت ومضت وانتهى الأمر ؛ وأراد
المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال :

أنا غرضي أنها تكون في محل أمين بين
زوجتي وأولادي

ولم أجد بداً من الازعان . وتركت المكان
وانصرفت إلى منزلي . وتناولت شيئاً من الطعام
على عجل . ثم أويت إلى فراشي واستغرقت في نوم
لم أصبح منه إلا عند منتصف الليل . قمت عطشان
فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة .
وتذكرت الفتاة وتخيلتها في بيت صاحبنا فنفر

من رأسي النوم . وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم
له ومي المأمور . ولكن الحوادث كالتقطط إذا
ناديتها رفضت المجيء وإذا طردتها جاءت تتمسح
بالأقدام . ولم أجد ما أصنع . وخالجني ريب
وشكوك . وطال الليل في نظري وسميح وتمنيت
طلوع النهار . وأردت أن أشغل فكري بتدوين
يومياتي فجمد القلم في يدي . ووقع بصري على
أكوام من قضايا الجنج والمخالفات والموارض من
« إيراد » اليومين السابقين أرسلها إلى كاتب
الجدول لقراءتها وتقييدها ووصف التهمة وتوقيعها
إلى الجلسات . فلم آنس عندي ميلاً إلى العمل .
فأبجته إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل
الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا
السكون الشامل في هذا الريف النائم ، كأنها عيون
ساهرة مطامة على خفايا الأشياء ...

جاء خطر لي أن أردني ثيابي وأن أنزل إلى
الطريق وأرود حول منزل المأمور . ما هذا الجنون؟
أما أفعل ذلك ؟ وإذا (ضبطي) خفير الدرك ؟ إنه قد
يعرف شخصي فيمتنذر . ولكنه سيخبر الناس
ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من
انتظار الصباح وما يأتي به ...

على أن الله لطف بي آخر الأمر فأرسل إلى
إشارة تليفونية ، طالعها في الحال فاذا هي واقعة
نافعة مما لا تقوم لها بالليل :

« ... مرور قطار البضاعة غرة ٢٠٩ خط
الداتا الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة
وجد سمار حدادي على الشريط . والحادثة بفعل
فاعل مجهول ... الخ الخ » . وقد أثير المأمور في
ذيل الإشارة بانتداب حضرة معاون الإدارة للانتقال
وإخطار البك وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه
لن يقوم ولا يرد لي أن أقوم . ولكن كيف أضيع

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا السكيلو ١٧ ، ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة السمار ، وأشار إلى عربية تحمل بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب ، فتناولت السمار بين أصابعي وجعلت أخفصه ، والمأمور خافى بقول باسمك : — « كان العطش جى فين ، لما الوابور وقع انكسر ! » ، فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاماً يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها يحمل الجد فتقدم يقول : — لا حصل كسر ولا وقوع يا فتد ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت في الحل . . .

ومضى يسرد آراءه قائلاً إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولما هم من أصلاب تلك القرية التي « عرمت » القطار في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه المبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا السمار على الخط الحديدى ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة ، فالأهالي في هذه الجهة يمشون على استخراج الحمى من الجبل ونقله على الحمير والجبال وببمه للمقاولين ، فقامت شركة سكة حديد الدلتا الإنجليزية فدمت هذا الخط حديثاً إلى الجبل وخصت نفقها بهذا المورد وانتعرت بذلك حتى هذا الحمى من أفواه هؤلاء الجياع الساكنين ، وسواء كان هذا هو السبب أو ذاك فإن الفاعل هنا أيضاً غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد انتهينا من الأمر بأن

هذه الفرصة التي هبطت من السماء ؟ ليس أحب إلى الليلة من أن أفلق راحتي وراحة حضرة المأمور . وارتدت في الحال ثيابي وأمرت باحضار السيارة وصرت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه من يوسع بابه طرقا ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل من نافذة صانحاً : — مسمار صغير تقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسي من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . ما دامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جنابة . لاحظ أنها جنابة تعطيل قطار ، أخطر جنابة في الدنيا . لا بد من حضورك يا حضرة المأمور — أنا ... أنا انتدبت مامون الادارة

— لا بد من حضورك شخصياً

— الليلة .. مستحيل .. أنا الليلة .. تعبنا ..

— كلنا في التعب سواء ؛ لكن الواجب

يحتم علينا . . . !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً في ضيق وامتناع ، ورأى عزيمتى واستماتنى ، وخشى أن يعارضنى في أمر متعلنى بالعمل ، فأذعن وطلب إلى الانتظار هنيئة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبي في السيارة وهو ينفخ من الغيظ . وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصفور . إذ على الرغم من صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فكر المأمور مشغولاً هذه المرة ، فلم يفتن اغياب الشيخ ، فلقد مضى في إطراره برهة ثم قال :

— أى نعم ! الواجب يحتم علينا . . . لكن

بمعنى . . . مسمار ! ؟ فأغمضت عيني حتى لا ينتظر منى جواباً ، فاستطرد :

— الله يسميه بالخير وكيل النيابة سافك . كان

يسأل في قضية القتل شاهدين لا غير ويقفل محضره ويميل على : « هو القاتل أبونا والآ أخونا ؟ قم نبيل ريقنا بكاس ! »

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التي لم يوضع عليها شيء بعد
ثم نظر إلى :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم

— ولا شاهد واحد فاضل . . ؟

— ولا ربيع شاهد

فتركني وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب
أحد الأهالي من « حرامه » ودفعه أمامي دفعاً
وأشار إليه وقال :

— شاهد مهم قوى ، عنده أقوال

فأبدت ارتياحي في قيمة كلام هذا الرجل
ورغبتني في الاكتفاء بمن سألت من شهود . ولكن
المأمور ألح في الرجاء أن أصنى إلى هذا الشاهد فأن
لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورقى
من جديد وما كدت أبدأ في إلقاء السؤال ، حتى
برز العمدة وخلفه خدمه يضمنون الطعام على المائدة .
وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى الفطور .
فاعتذرت بضعف صحي وامسأكي عن الأكل عادة
في الصباح . فانطلق من فم العمدة قسم غليظ .
وتواطأ في الحال مع المأمور على حملي من مكاني حملاً .
وإذا بي أجد نفسي في صدر المائدة . فأذعنت ،
وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء الخلوقات وبينهم
المأمور بأكلون وينهشون ويزددون وقد انشغلوا
بأنفسهم فلم يفتنوا حتى إلى قلة أكلتي ؛ وقت من
بينهم متسلاً بعد قليل وجلس في مكاني الأول
أنتظر تارة وأتصفح محضري تارة إلى أن فرغوا من
أمر بطونهم وأتوا على ما فوق الخوان وقاموا بمسحون
أيديهم في غطاء المائدة الذي لم ير وجه الصابون
منذ عامين ، وأقبل على المأمور يتجشأ ويقول :

وضمنا السار داخل « حرز » وختمنا عليه بالشمع
الأحمر وأرفقناه بالأوراق . . . إلى آخر هذا الكلام
الرسمي الذي هو كل بضاعتنا ، وكان الندي قد
تساقط على رؤوسنا فرآى المأمور فتح المحضر في
« دوار » العمدة ، فسألت عن المسافة بيننا وبينه ،
فرد نائبه قائلاً :

— « فركة كمب » يا حضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت
مفاصلنا تتخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر في
زاوية الناحية ، وتركت المأمور « يسمخ » لنائب
العمدة على « فركة » الكمب ، وأنهمكت في فتح
المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ،
وأردت أن أختم محضري ، وإذا بي أرى حركة
نصب مائدة واعداد طعام وحضرة المأمور قائماً
قاعداً ينظر في الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم
ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة في
ناحية :

— اسمع يا عمده ! البك الوكيل لا يحب الخرفان
على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً ، ولكن لا بأس
من كم زغولة مدفونة في الأرز ، والقراقيش إياها
والفطير المشاتت ؛ وإن كان عليه كم كتكوت محرماني
ضرر ، والذين الزاب طبعاً شيء مفيد للصحة . ولا
بأس من كم بيضة مقالية في القشدة ، كفاية ، إياك
يا عمدة تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته
ضميفة . إن كان عندك عسل نحل بشمعه فلا بأس .
قرصين جبنه ضاني لا مانع ، طبق كمك وغريبة .
الفرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد المارقين !
أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهي ولم أدر ما
أصنع . ورأيت الخير في أن أسرع بالانصراف .
فطويت أوراقى على عجل . ولكن عين المأمور
لحظتني وأدرك غرضي . فجاءني مسرعاً يسألني :

حياة ، فوقفت قليلاً وقد شردت خاطري ، وخاضعتني
إحساس من يقف في المحطة بين القطر . نعم ،
أو لست الساعة في تلك المحطة التي يسافر منها
المريض إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاته إلى
باب المستشفى الكبير ورأيت العسكري المكلف
بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات في ثيابهن
السود « طرهن » الزرق وأصواتهن التي يقطعها
عويل القلق . فعلمت أنه سيأتي إليهن بجثة بعد
قليل . فأنهم في كل يوم يلقون خارج أسوار هذا
المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض
بالباب ذو الناب الأزرق في لون « النيلة » والحجاب
المعطر بالطين والتراب

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل
دلواً فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها
أحشاء خروف ، فنظرت في ذلك ، فقال لي الرجل
إن هذا خرج من بطن امرأة هي الساعة فوق
المشرحة تحت البثج ، فجمدت في موقعي . وبادر
المأمور وطاب باسمي مقابلة الحكيمباشي في الحال ،
فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات ،
فتجسدت ودخلت وخلفت من كان معي ، فقابلني
الحكيمباشي بابتسامة وهو مازال منحنيًا في معطفه
الأبيض على شيء فوق المشرحة وقد شرد عن ذراعيه
وفي يده أداة كأنها « الكاشة » وحوله رهط من
أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان في
ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت إلى الذي بين
يديه فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقًا طويلاً
من الصدر حتى أسفل البطن ، وإذا « الكاشة »
في يده تجمع الجلد الذي انشق وتخطيه بشيء كأنه
المسامير الصغيرة ، والطبيب يفعل ذلك في سرعة
غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحاً ضاحكاً كأنه
« حاو » بفأخر بخفة يده ومهارة صنمته . ونظرت

— أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى
فأشرت إلى الشاهد الذي كان جاني به وقد
نسيه فيما يظهر :
— لما نسأل الشاهد المهم !
فأجاب المأمور من فوره :
— لا مهم ولا حاجة
وتركني وأنجه إلى الفلاح وقال له :
— أنت يا ولد عندك معلومات ؟
فأجاب الفلاح :
— « لَع »
أى لا ، فالتفت إلى المأمور قائلاً :

— جحش الله في برسيمه ! لا عنده معلومات
ولا يحزنون . قم بنا يا سمادة البك نرجع بلدنا !
ونهنضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس . ولم نكد
نبلع دار المركز حتى أقبل علينا « البلوكامين »
يحمل إشارة من المستشفى الأميري أن المصاب « قر
الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته الآن ويمكن
استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شيء ،
خشية أن يعود المصاب إلى الأغماء أو سوء الحال
فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين شفتيه
سر الحادث

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشي »
فقبل لنا إنه في قاعة العمليات ، فسرنا في الردهة
الموصلة إليها ، فقابلتنا تلك الأسرة الصغيرة والمحفات
التي تجرى على عجالات فوق الأسفلات كأنها عربات
الحالين في المحطات الكبرى ، ورأينا تلك البياض
وأدوات التعقيم تدفع على بكر وتتصاعد منها البخار ،
والمرضون في هرج ومرج بأردبيتهم البيضاء
يدفعون تلك العجلات التي تحمل أجساماً في طريق
الفناء ، يدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون
دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو

علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت :
— الغرض ، يمكننا استجوابه حالا ؟

فأجاب الطبيب في صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلى

ثم دنا من المصاب وناداه في هدوء ففتح قليلاً
عينين ذهب بريقهما وكانهما لا يريان شيئاً ولا يثبتان
على شيء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضريك ؟

فلم يجب . فاعدت عليه السؤال ففتح شفثيه
ولم يقل شيئاً . فألححت عليه فبذل جهداً ظاهراً
وقال كلمة واحدة :

— ريم !

فدمعت قليلاً . والتفت بمنة ويسره فوجدت
المأمور وسكرتير التحقيق شأنهما شأنى فى الاهتمام
بالأمر والمجب له . فنظرت فى وجه المصاب وقلت :

— وضغ غرضك يا قمر !

فلم يجب

— قصدك أن ريم هى نفسها ...

فلم يبد حراكا ...

— يا قمر ، يا علوان . تكلم . لا بد أن تتكلم .
كلمة واحدة . الضارب ؟ من الضارب ؟

ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه
وقد تفقد جبينه عرقاً . فجدبني الحكيمباشى من
يدى بعيدا وقال :

— كفاية !

فنظرت الى المأمور يائساً :

— كفاية ؟ !

وهل ظفرتنا نحن بشيء ؟ لقد كان موقفنا
عند دخولنا أوضح منه الآن . إنها كلمة لفظها هذا
القم الحاف بمد جهد ، ايته لم يلفظها ...

(يتبع) ترفيق الحكيم

فى وجه البنت الشاحب وهى كالمينة ، ثم إلى جلدة
بطنها وقد رشقت بالسامير فى من طوبل كأنها
جلدة حذاء فى يد الاسكافى ؛ فشمرت بدوار فى
رأسى وخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب
المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهى فترك
المريضة وحدق فى وجهى قلقاً . فأسرعت وخرجت
من القاعة وأنا أقول له فى صوت لم يخرج إلا نصفه
من حلقى :

— منتظرك يا دكتور بعد العملية

وسألنى المأمور عما بى فلم أستطع التعليل . إلى
قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما
رأيت جثثاً تقطع أمامى وبطوناً تبقر فلم أنأثر .
ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أترانى شديد
التأثر لم أرى الأجسام الحية تعامل معاملة الجثثات ؟
أم أنها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة
العمليات فبلفت خياشيمى إذ دنوت من جسم الفتاة ؟
وأعدنى الهواء الطلق خارج القاعة الى نشاطى
وجلسنا ننتظر فى مكتب الحكيمباشى ، ونشرب
قهوة طابها لنا « الباشتمرحى » . الى أن حضر
رئيس الدار فقادنا مرحباً الى « عنبر » المصاب

وجلسنا معه خلال ممرات ازدجت بالأسرة إذ
لم تكف « العنابر » لأواء هذا القدر من التمساء .
ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب « الزعابيط »
الزرقاء يتناولون فى نهم حساءهم فى أوان صغيرة
من « الألومنيوم » ، وينظرون الينا ومعنا
الحكيمباشى كما ينظر القردة فى حديقة الحيوانات
الى الحراس مع كبار الزائرين

ووصلنا الى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه
مدداً لا يتحرك . ونزع الحكيمباشى من رأس
السرير تلك الرقعة التى بدون فيها تطورات مرضه وقرأ